بعدها : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿٣﴾ ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾ [الأحزاب] فالعلم غير الحكمة ، العلم أن تعلم القضايا ، أمَّا الحكمة فأنْ تُوظِّف هذه القضايا في أماكنها ، فالعلم وحده لا يكفي ، فالصفتان متلازمتان متكاملتان ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [القصص]

فالقوى إنْ كان خائناً لم تنفعك قوته ، كذلك إنْ كان الأمين ضعيفاً فلا تنفعك أمانته ؛ لذلك لما اشتكى أمير المؤمنين إلى أحد خاصته من أهل العراق ، يقول : إن استعملتُ عليهم القوى يَفْجُروه[1] ، وإن استعملتُ عليهم الضعيف يُهينوه ، فقال له : إن استعملت عليهم القوى فلك قوته وعليه فجوره ، فقال له أمير المؤمنين : ما دُمْتَ قد عرفتَ هذا فلا أُوَلِّي عليهم غيرك .

إذن : فالعلم يعطيك قضايا الخير كله ، والحكمة أنْ تضع الشيء في موضعه ، والقضية في مكانها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ[2] خَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

---

(١) يفجرونه : يُغضبونه ويخالفونه . ويفجرونه أيضاً : يجعلونه يفجر فلا يرعى لهم حرمة [معنى ما في لسان العرب - مادة : فجر] .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٧/٥٧٥ ٢) : « قراءة العامة بتاء على الخطاب ، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم . وقرأ السلمي وأبو عمرو وابن أبي إسحاق « يعملون » بالياء على الخبر » ، أي : أن الله كان :

- بما تعملون من اتباع ما أوحى إلينا من ربنا ببلاغ رسلنا .

- بما يعمل الكافرون والمنافقون من الكيد للإسلام ومحاولة إبعادنا عن اتباعنا ديننا .

نلحظ هنا نهياً بين أمرين : الأول ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللَّهَ .. ۝١ ﴾ [الأحزاب] والآخر ﴿ وَاتَّبِعْ مَـا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ .. ۝٢ ﴾ [الأحزاب] وبينهما النهى : ﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ۝١ ﴾ [الأحزاب] ووقوع هذا النهى بين هذين الأمرين ترتيب طبيعى ؛ لأنك إذا اتقيتَ الله ستُعلى منهج الحق ، وهذا يؤذى أهل الباطل وأهل الفساد المستفيدين به ، فلا بُدَّ أنْ يأتوا إليك يوسوسون فى أُذنك ليصرفوك عن منهج ربك ، وعليك إذن أنْ ترد الأمر إلى ما يوحى إليك وأنْ تتبعه .

وقلنا : إن الوحى : إعلام بخفاء ، فإنْ كان علانية فلا يُعَدُّ وحياً ، ولله تعالى فى وحيه وسائل كثيرة مع جميع خَلْقه ، فيوحى سبحانه إلى الجماد ؛ لأنه قادر على أن يخاطب الجماد ، كما فى قوله سبحانه وتعالى عن الأرض : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ ﴾ [الزلزلة]

ويوحى إلى النحل : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ﴾ [النحل]

ويُوحى إلى غير رسول أو نبى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِى وَبِرَسُولِى .. ۝١١١ ﴾ [المائدة]

وقال : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ۝٧ ﴾ [القصص]

هذا هو الوحى فى معناه العام ، أما الوحى الخاص فيكون من الله تعالى لرسول مُرْسَل من عنده إلى الخَلْق ، وله طرق متعددة ، فمرةً يكون بالنفث فى الروع ، ومرة يكون بالوحى بكلام لا يُرى قائله ، ولا يُعرف مصدره ، ومرة يكون عن طريق رسول ينزل به من الملائكة .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً .. ۝٥١ ﴾ [الشورى]

والقرآن الكريم لم يأت بالإلهام ولا بالكلام من وراء الغيب والحُجُب ، إنما جاء عن طريق رسول ملَك نزل به على رسول الله ، فثبت القرآن من هذا الطريق .

ولا بُدَّ في هذه المسألة من التقارب بين الرسول الملَك ، والرسول البشر ، فلكل منهما طبيعته الخاصة ، ولكى يلتقيا لا بُدَّ من أمرين : إما أنْ يرتفع البشر إلى مرتبة الملائكية بحيث يستقبل منها ، أو ينزل الملَك إلى مرتبة البشرية بحيث يستطيع أنْ يُلقنها .

لذلك جاء في الحديث أن جبريل عليه السلام نزل إلى مجلس رسول الله في صورة بشرية ليُعلِّم الناس أمور دينهم[١] . وكان النبى ﷺ فى أول الوحى تأخذه قشعريرة ، ويتصبب جبينه عرقاً ، حينما يأتيه جبريل بالوحى ، وما ذاك إلا لالتقاء الملكية بالبشرية ، فكان ﷺ يبلغ به الجهد حتى يقول : زمِّلونى زمِّلونى ، دثِّرونى دثِّرونى .

وإذا جاءه الوحى وهو جالس مع أصحابه وركبته على ركبة أحدهم يشعر لها بثقل كأنها الجبل[٢] ، أو يأتيه الوحى وهو على دابة فكانت تئط[٣] ، لذلك فتر عن رسول الله الوحى بعد فترة ليستريح من هذا الإجهاد ، وتبقى له حلاوة ما أُوحى إليه ، فيتشوق إليه من جديد .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٨) من حديث عمر بن الخطاب : أن جبريل أتى رسول الله ﷺ بين أصحابه فى صورة « رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه أحد » .

(٢) قال زيد بن ثابت (كاتب الوحى) : أنزل الله على رسوله ﷺ ، وفخذه على فخذى ، فثقلت علىَّ حتى خفت أن تُرضَّ فخذى (أى : تكسر وتدق) أخرجه البخارى معلقاً مجزوماً به فى كتاب الصلاة ـ باب ما يذكر في الفخذ ، ووصله فى تفسير سورة النساء .

(٣) عن أسماء بنت يزيد قالت : إنى لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول ﷺ إذ أنزلت عليه المائدة كلها فكادت من ثقلها تدق بعضد الناقة . أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤٥٥/٦) .

وبعدها خاطبه ربه : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) ﴾ [الشرح]

والهدف حينما يكون غـالياً ، والغاية سامية يهـون فى سبيلها كل جـهد ، وقـد عـاد الوحي إلى رسـول الله بعـد شوق ، وخـاطبـه ربه بقوله : ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾ [الضحى]

إذن : ثبت القـرآن بالوحى عن طريق الرسـول الملَك ، ولم يثـبت بالإلهـام أو النفث في الرَّوْع ، أو الكـلام من وراء حـجـاب ، يـقـول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ .. (٥٢) ﴾ [الشورى]

والوحى هنا ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (٢) ﴾ [الأحزاب] منْ مَنْ ؟ ﴿ مِن رَّبِّكَ .. (٢) ﴾ [الأحزاب] ولم يقل مـثـلاً رب الخلـق ، نعم هو سبـحانه رب الخَلْق جميـعاً ، لكن محـمداً ﷺ سيد الخلق ، فـهو رب الخلق من باب أَوْلَى ، وكلمة (ربك) تدل على الحب وعلى الاهتمام ، وأنه تعالى لن يخذلك أبداً ، وما اتصاله بك إلا للخير لك ولأمتك .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) ﴾ [الأحزاب] الخبـير مَنْ وصـل إلى منـتـهى العلم الدقيـق ، ومنـه قـولنـا : اسأل أهل الخـبرة . يعـنى : لا يسأل أهل العلـم السطحى ، فالخـبـيـر هـو الذى لا يغيب عنه شىء .

وتلحظ أن الآية السابقة خُـتمتْ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) ﴾ [الأحزاب] أى : عليمًا بما يُشـرِّع ، حكيماً يضع الأمر فى موضعـه ، وقال هنا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) ﴾ [الأحزاب] أى : بما ينتهى إليه أمرك مع التشريع ، استجابةً أو رفضاً ، فربُّك لن يُشرِّع لك ثم يتركك ، إنما يَخْبُر ما تصنع ، ولو حتى نوايا القلوب .

فالخبرة تدل على منتهى العلم وعلى العلم الواسع ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى فى قصة لقمان : ﴿ يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَـٰوَاتِ أَوْ فِى الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان]

فالخبرة تدل على العلم الواسع الذى لا تفوته جزئية مهما صغرت ، واللطف هو التغلغل فى الأشياء مهما كانت دقيقة ، وقلنا : إن الشىء كلما لَطُفَ عَنُفَ .

فكأن الحق سبحانه يقول لرسوله : اطمئن ، فمهما صُودمتَ من خصومك ، ومهما تألَّبوا عليك ، فربُّك من ورائك لن يتخلى عنك ، وهؤلاء الخصوم خَلْقى ، وأنا معطيهم الطاقات المفكرة والطاقات العاقلة والطاقات المتآمرة ، وسوف أنصرك عليهم فى كل مرحلة من مراحل كيدهم لك .

لذلك لم يقووا عليك مناظرة ولا جدلاً ، ولم يقدروا عليك حين بيَّتوا لك ليضربوك ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمك بين القبائل ، وخرجتَ من بينهم سالماً تحثو التراب على رؤوسهم ، حتى لما استعانوا عليك بالسحر وبالجن أخبرتُك بما يدبرون لك ، ولم أُسْلِمْك لكيدهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) ﴾

يعنى : إياك أن تظن أن واحداً من هؤلاء سوف يساعدك فى أمرك ، أو أنه يملك لك ضراً ولا نفعاً ، فلا تُحسن الظن بأوامرهم ولا

بنواهيهم ، ولا تتوكل عليهم فى شىء ، إنما توكل على الله .

ولا بُدَّ أن نُفرِّق هنا بين التوكل والتواكل : التوكل أن تكون عاجزاً فى شىء ، فتذهب إلى مَنْ هو أقوى منك فيه ، وتعتمد عليه فى أن يقضيه لك ، شريطة أن تستنفد فيه الأسباب التى خلقها الله لك ، فالتوكل إذن أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب .

وقد ضرب لنا سيدنا رسول الله ﷺ مثلاً توضيحياً فى هذه المسألة بالطير ، فقال : « لو توكلتم على الله حقَّ توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً[١] وتروح بطاناً »[٢] .

أما التواكل فأنْ ترفضَ الأسباب التى قدمها الله لك ، وتقعد عن الأخْذ بها ، وتقول : توكلت على الله ، لا إنما استنفد الأسباب الموجودة لك من ربك ، فإنْ عزَّتْ عليك الأسباب فلا تيأس ؛ لأن لك رباً أقوى من الأسباب ؛ لأنه سبحانه خالق الأسباب .

لذلك ، كثير من الناس يقولون : دعوتُ الله فلم يستجب لى ، نقول : نعم صدقت ، وصدق الله معك ؛ لأن الله تعالى أعطاك الأسباب فأهملتها ، فساعة تستنفد أسبابك ، فثِقْ أن ربك سيستجيب لك حين تلجأ إليه .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ .. (٦٢) ﴾ [النمل] والمضطر هو الذى عزَّتْ عليه الأسباب ، وخرجتْ عن

---

(١) المخمصة : الجوع ، وهو خلاء البطن من الطعام جوعاً . ومعنى الحديث : أى تغدو الطير بُكرة وهى جياع ، وتروح عشاء وهى ممتلئة الأجواف . [لسان العرب ـ مادة : خمص] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٠ ، ٥٢) ، وابن ماجه فى سننه (٤١٦٤) ، والترمذى فى سننه (٢٣٤٤) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال : حديث حسن صحيح .

نطاق قدرته ، كما حدث لسيدنا موسى - عليه السلام - حين حاصره فرعون وجنوده حتى قال قوم موسى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء]

نعم ، مدركون ؛ لأن البحر من أمامهم ، والعدو من خلفهم ، هذا رأى البشر وواقع الأمر ، لكن لموسى منفذ آخر فقال : (كلا) يعنى لن نُدْرَك ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء] قالها موسى عن رصيد إيمانى وثقة فى أن الله سيستجيب له .

والبعض يقول : دعوتُ الله فى كذا وكذا ، وأخذت بكل الأسباب ، فلم يستجب لى ، نقول : نعم لكنك لَسْتَ مضطراً ، بل تدعو الله عن ترف كمن يسكن مثلاً فى شقة ويدعو الله أنْ يسكن فى فيلا أو قصر ، فأنت فى هذه الحالة لست مضطراً .

ثم يذكر الحق سبحانه حيثية التوكل على الله ، فيقول ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣) ﴾ [الأحزاب] أى : يكفيك أنْ يكون الله وكيلك ؛ لأنه لا شىء يتأبَّى عليه ، ولا يستحيل عليه شىء .

وأحكى لكم قصة حدثت بالفعل معنا ، وكنا نسير مع بعض الإخوان فرأينا رجلاً مكفوف البصر يريد أنْ يعبر الشارع فقلنا لزميل لنا : اذهب وخذ بيده ، فنزل وعبر به الشارع ثم قال له : إلى أين تذهب ؟ قال : إلى المنزل رقم كذا فى هذا الشارع ، فأخرج صاحبنا من جيبه عشرة جنيهات ووضعها فى يد الرجل ، فلما أمسك بورقة العشرة جنيهات لم يلتفت إلى المعطى ، إنما رفع وجهه إلى السماء وقال : لا شىء يستحيل عليك أبداً ، ثم قال لصاحبنا : يا بنى أرجعنى مكان ما كنت !! فقد قضيت حاجته التى كان يسعى لها !!

نعم ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣) ﴾ [الأحزاب] لأنه لا تعوزه أسباب ، ولا

يُثنيه عن إرادته شيء ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦) ﴾ [النحل]

وفي التوكل ملحظ آخر ينبغي أنْ نتنبه إليه ، هو أنك إذا توكلتَ على أحد يقضي لك أمراً فاضمن له أنْ يعيش لك حتى يقضي حاجتك ، فكيف تتوكل على شخص وتُعلِّق به كل آمالك ، وفي الصباح تسمع نعيه : مات فلان ؟

إذن : لا ينبغي أن تتوكل إلا على الله الحي الذي لا يموت : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ .. (٥٨) ﴾ [الفرقان] واستغنِ بوكالة الله عن كل شيء ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣) ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ (١) وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ (٢) ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ﴾

---

(١) **سبب نزول الآية** : قال مجاهد : نزلت في جميل بن معمر الفهري ، وكان رجلاً لبيباً حافظاً لما سمع ، فقالت قريش : ما حفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان ، وكان يقول : إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد ﷺ ، فلما كان يوم بدر وهزم المشركون وفيهم يومئذ جميل بن معمر ، تلقاه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده والأخرى في رجْله ، فقال له : يا أبا معمر ما حال الناس ؟ قال : انهزموا ، قال : فما بالك إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك ؟ قال : ما شعرت إلا أنهما في رجلي ، وعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعله في يده . [أسباب النزول للواحدي ص ٢٠١] .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٥٢٧٨/٧) : « أجمع أهل التفسير على أن هذا نزل في زيد ابن حارثة . وروى الأئمة أن ابن عمر قال : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الأحزاب] » .

ترتبط هذه الآية بالآيات قبلها ، فقد ذكر الله تعالى معسكرين : معسكراً يجب أنْ يُطاع ، فقال تعالى لرسوله ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. ① ﴾ [الأحزاب] وقال : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ .. ② ﴾ [الأحزاب] وبينهما معسكر آخر نُهى رسول الله عن طاعته ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ① ﴾ [الأحزاب]

إذن : نحن هنا أمام معسكرين : واحد يمثل الحق فى أجلى معانيه وصوره ، وآخر يمثل الباطل ، وللقلب هنا دَوْر لا يقبل المواربة ، إما أنْ ينحاز ويغلب صاحب الحق ، وإما أنْ يغلب جانب الباطل ، وما دمت أنت أمام أمرين متناقضين لا يمكن أنْ يجتمعا ، فلا بُدَّ أن تُغلِّب الحق ؛ لأن الله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. ④ ﴾ [الأحزاب] إما الحق وإما الباطل ، ولا يمكن أنْ تتقى الله وتطيع الكافرين والمنافقين ؛ لأن القلب الذى يميل ويغلب قلب واحد .

ومعلوم أن القلب هو أهم عضو فى الجسم البشرى ، فإذا أصيب الإنسان بمرض مثلاً يصف له الطبيب دواءً ، الدواء يُؤخذ عن طريق الفم ويمرُّ بالجهاز الهضمى ، ويحتاج إلى وقت ليتمثل فى الجسم ، فإنْ كانت الحالة أشدَّ يصف حقنة فى العضل ، فيصبُّ الدواء فى الجسم مباشرة ، فإنْ كان المرض أشد يُعْطَى حقنة فى الوريد ، لماذا ؟

ليصل الدواء المطلوب جاهزاً إلى الدم مباشرة ، ليضخه القلب إلى جميع الأعضاء فى أسرع وقت . إذن : فالدم هو الذى يحمل خصائص الشفاء والعافية إلى البدن كله ، والقلب هو (الموتور) الذى يؤدى هذه المهمة ؛ لذلك عليك أنْ تحتفظ به فى حالة جيدة ، بأن تملأه بالحق حتى لا يفسده الباطل .

وسبق أنْ أوضحنا أن الحيز الواحد لا يمكن أنْ يسع شيئين فى وقت واحد فما بالك إنْ كانا متناقضين ؟ وقد مثَّلْنا هذه العملية بالزجاجة الفارغة إنْ أردتَ أن تملأها بالماء لا بُدَّ أنْ يخرج منها الهواء أولاً ليدخل مكانه الماء .

كذلك الحال فى المعانى ، فلا يجتمع حق وباطل فى قلب واحد أبداً ، وليس لك أنْ تجعل قلباً للحق وقلباً للباطل ؛ لأن الخالق جعل لك قلباً واحداً ، وجعله محدوداً لا يسع إلا إيمانك بربك ، فلا تزاحمه بشىء آخر .

ويُرْوَى أنه كان فى العرب رجل اسمه جميل بن أسد الفهرى[1] وكان مشهوراً باللسَن[2] والذكاء ، فكان يقول : إن لى قلبين ، أعقل بواحد منهما مثل ما يعقل محمد ، فشاء الله أنْ يراه أبو سفيان وهو منهزم بعد بدر ، فيقول له : يا جميل ، ما فعل القوم ؟ قال : منهم مقتول ومنهم هارب ، قال : وما لى أراك هكذا ؟ قال : مالى ؟ قال : نعل فى كفِّك ، ونعل فى رجْلك ، قال : والله لقد ظننتهما فى رجلى ، فضحك أبو سفيان وقال له : فأين قلباك ؟

وإذا كان القلب هو المضخة التى تضخ الدم إلى كل الجوارح والأعضاء حاملاً معه الغذاء والشفاء والعافية ، كذلك حين تستقر عقائد الخير فى القلب ، يحملها الدم كذلك إلى الجوارح والأعضاء ،

---

(١) ذكر ابن حجر العسقلانى هذه القصة فى كتابه « الإصابة فى تمييز الصحابة » (١/٢٥٥) فى ترجمة جميل بن أسيد الفهرى يكنى أبا معمر ويلقب ذا القلبين . وذكرها أيضاً فى ترجمة وهب بن عمير الجمحى (٦/٣٢٧) ثم قال : « ذكر الثعلبى هذه القصة لجميل بن معمر . وأن الذى تلقاه فسأله هو أبو سفيان ، وأسنده ابن الكلبى فى تفسيره عن أبى صالح عن ابن عباس لكن قال : جميل بن أسد » .

(٢) اللَّسن : الفصاحة . واللسْن : الكلام واللغة . [لسان العرب ـ مادة : لسن] .

فتتجه جميعها إلى طاعة الله ، فالرِّجْل تسعى إلى الخير ، والعين لا تنظر إلا إلى الحلال ، والأذن تسمع القول فتتبع أحسنه ، واللسان لا ينطق إلا حقاً .

فكل الجوارح إذن لا تنضح إلا الحق الذى تشرَّبته من طاقات الخير فى القلب .

لذلك يُعلِّمنا سيدنا رسول الله هذا الدرس ، فيقول : « إن فى الجسد مضغة ، إذا صَلُحَتْ صَلُحَ الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[1] .

ثم يأخذ الحق سبحانه من مسألة اجتماع المتناقضين فى قلب واحد مقدمة للحديث عن قضايا المتناقضات التى شاعتْ عند العرب ، فيقول سبحانه : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ .. ۝٤ ﴾ [الأحزاب]

وقد شاع فى الجاهلية حين يكره الرجل زوجته ، يقول لها : أنت علىَّ كظهر أمى ، ومعلوم أن ظهر الأم مُحرَّم على الابن حرمة مؤبدة ، لذلك كانوا يعتبرون هذه الكلمة تقع موقع الطلاق ، فلما جاء الإسلام لم يجعلها طلاقاً ، إنما جعل لها كفارة كذب ؛ لأن الزوجة ليست أماً لك ، وحدد هذه الكفارة إما : عتق رقبة ، أو إطعام ستين مسكيناً ، أو صيام ستين يوماً[2] .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

(٢) قال تعالى فى كفارة الظهار : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤ ﴾ [المجادلة] .

وهذه المسألة تناولتها سورة (قد سمع) : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا .. (٢) ﴾ [المجادلة] أي : كذباً ؛ لأن الزوجة لا تكون أماً .

فالحق سبحانه جاء بمتناقض ، وأدخل فيه متناقضاً آخر ، فكما أن القلب الواحد لا تجتمع فيه طاعة الله وطاعة الكافرين والمنافقين ، فكذلك الزوجة لا تكون أبداً أماً ، فهي إما أم ، وإما زوجة .

كذلك وُجد عند العرب تناقض آخر في مسألة التبني ، فكان الرجل يستوسم الولد الصغير ، أو يرى فيه علامات النجابة فيتبناه ، فيصير الولد ابناً له ، يختلط ببيته كولده ، ويرثه كما يرثه ولده ، وله عليه كل حقوق الابن .

وهذه متناقضة أيضاً كالسابقة ، فكما أن الرجل لا يكون له قلبان ، وكما أن الزوجة لا تكون أماً بحال ، كذلك المتبنَّى لا يكون ولداً ، فيقول سبحانه ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ .. (٤) ﴾ [الأحزاب]

الدعيُّ : هو الذي تدعى أنه ابنٌ وليس بابن ، وكان هذا شائعاً عند العرب ، وأراد الله سبحانه أنْ يبطل هذه العادة ، ومثلها مسألة الظِّهار ، فألغى القرآن هذه العادات ، وقال : ضعوا كل شيء في موضعه ، فجعل للظهار كفارة ، ونهى عن التبني بهذه الصورة .

والحق سبحانه ساعةَ يريد أنْ يلغي حكماً يقدم صاحب الدعوى نفسه ليطبق هو أمام الناس ؛ لذلك جعل سيدنا رسول الله يبدأ بنفسه ، ويبطل التبني الذي عنده .

تعلمون أن سيدنا رسول الله ﷺ تزوج من السيدة خديجة ، وكان

لها منزلة عند رسول الله ، وقد اشترى لها حكيم بن حزام[1] عبداً من سوق الرقيق هو زيد بن حارثة ، وكان من بنى كلب ، سرقه اللصوص من أهله ، وادعوا أنه عبد فباعوه ، ثم أهدتْه السيدة خديجة لسيدنا رسول الله ، فصار مولىً لرسول الله ، يخدمه طيلة عدة سنوات ، وما بالكم بمَنْ يكون فى خدمة رسول الله ؟

لقد أحبَّ زيدٌ رسولَ الله ، وعَشق خدمته ، وقال عن معاملته ﷺ له : « لقد خدمتُ رسول الله عشر سنين ، فما قال لشىء فعلتُه : لِمَ فعلتَه ، ولا لشىء تركتُه لِمَ تركتَه »[2] .

وفى يوم من الأيام ، رآه واحد من بنى كَلْب فى طرقات مكة ، فأخبر أهله به ، فأسرع أبو زيد إلى مكة يبحث عن ولده ، فدلُّوه عليه ، وأنه عند محمد ، فذهب إلى سيدنا رسول الله ، وأخبره خبر ولده ، وطلب منه أنْ يعود معه إلى بنى كلب .

ولكن ، ما كان رسول الله ليتخلَّى عن خادمه الذى يحبه كل هذا الحب ، فقال لأبيه : خيِّره ، فإن اختاركم فخذوه ، وإن اختارنى فأنا له أبٌ ، فلما خيَّروه ـ قال سيدنا زيد : والله ما كنت لأختار على رسول الله أحداً .

عندها أحب رسول الله أن يكافئه على هذا الموقف ، وعلى

---

(١) هو : حكيم بن حزام بن خويلد الأسدى ، عمته خديجة بنت خويلد ، ولد قبل الفيل بـ ١٣ سنة ، كان من سادات قريش ، وكان صديق النبى ﷺ قبل المبعث وكان يوده ويحبه بعد البعثة ،ولكن تأخر إسلامه حتى أسلم عام الفتح . فى عام وفاته خلاف ولكنه مات وعمره ١٢٠ سنة . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/ ٣٣] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٣٨) والترمذى فى سننه (٢٠١٥) من حديث أنس ابن مالك رضى الله عنه .

تمسَّكه بخدمته ، فتبنّاه كما تتبنى العرب ، وسمَّوْه بعدها : زيد بن محمد.[1]

فلما أراد الحق سبحانه أنْ يبطل التبني بدأ بمتبنَّى رسول الله ، ليكون هو القدوة لغيره في هذه المسألة ، فكيف أبطل الله تعالى هذه البنوة ؟

كان سيدنا رسول الله قد زوَّج زيداً من ابنة عمته زينب بنت جحش ، أخت عبد الله بن جحش ، وقد تعب رسول الله في إقناع عبدالله وزينب بهذه الزيجة التي رفضتها زينب[2] ، تقول : كيف أتزوج زيداً وهو عبد وأنا سيدة قرشية ؟

ثم تزوجته إرضاءً لرسول الله ، وعملاً بقوله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** (٣٦) ﴾ [الأحزاب]

لكنها بعد الزواج تعالتْ عليه ، أنها من السادة ، وهو من العبيد ، فكَرِه زيد ذلك ، ولم يُطِقْ فأحبَّ أنْ يطلقها ، فذهب إلى رسول الله وشكا إليه ما كان من زينب ، وعرض عليه رغبته في طلاقها .

فقال له رسول الله : أمسك عليك زوجك ، فعاوده مرة أخرى فقال

---

(١) أورده ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٤٠) . وابن الأثير في أسد الغابة (٢/ ٢٨٢) ، وابن حجر العسقلاني في الإصابة (٢/ ٥٩٩) . وفيه أن رسول الله ﷺ قال عندما اختاره زيد على أبيه وعمه : « يا من حضر ، اشهدوا أن زيداً ابني أرثه ويرثني ، فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا » .

(٢) أورد ابن سعد في الطبقات (١٠/ ٩٨) أن زينب بنت جحش قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، لا أرضاه لنفسي وأنا أيم قريش ، قال : فإني قد رضيته لك ، فتزوجها زيد ابن حارثة .

له : أمسك عليك زوجك فعاوده زيد ، عندها علم رسول الله أن رغبتهما فى الطلاق ، وكراهيتهما للحياة الزوجية أمر قدرى ، أراده الله لحكمة ، ولأمر تشريعى جديد ، شاء الله أنْ يُوقع البغض بين زيد وزينب ، فبُغْض زينب لزيد كان تعالياً واستكباراً ، وبُغْض زيد لزينب كان اعتزازاً بالنفس .

ولكى يبطل الحق سبحانه تبنِّى رسول الله لزيد قضى بأنْ يتزوَّج رسول الله من زينب بعد طلاقها من زيد ، ومعلوم أن امرأة الابن تحرم على أبيه ، فزواج سيدنا رسول الله من زينب يعنى أن زيداً ليس ابناً لرسول الله ، ويبطل عادة التبنى ، والأثر المترتب على هذه العادة .

وقد أحسَّ رسول الله بشىء فى نفسه ، وتردَّد فى هذا الزواج مخافة أنْ يقول الناس : إن محمداً أوعز إلى زيد أنْ يُطلِّق زينب ليتزوجها هو ، كما يقول بعض المستشرقين الآن ، وأنه ﷺ كان يضمر حبَّ زينب فى نفسه ، وهذه كلها افتراءات على رسول الله ، فالذى يحب امرأة لا يسعى جاهداً لأنْ تتزوج من غيره ، وحين يريد زوجها أنْ يُطلِّقها لا يقول له : أمسكْ عليك زوجك .

ثم لا ينبغى لأحد أنْ يخوض فيما أخفاه رسول الله فى نفسه ، من أنه عاشق أو مُحبٌّ ، لكن انظر فيما أبداه الله ، فالذى أبداه الله هو الذى يُخفيه رسول الله ، واقرأ : ﴿ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ** (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

إذن : الذى كان يُخفيه رسول الله هو أنه يخاف أنْ تتكلَّم به العرب ، وأنْ تقول فيه ما لا يليق به فى هذه المسألة .

ويقول تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا[1] زَوَّجْنَاكَهَا (٣٧)﴾ [الأحزاب] لماذا ؟ ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ.. (٣٧)﴾ [الأحزاب]

وهكذا قرَّر الحق سبحانه مبدأ إبطال التبنى فى شخص رسول الله ﷺ.

والحق سبحانه حينما يبطل عادة التبنى إنما يبطل عادة ذميمة ، تُقوِّض بناء الأسرة ، وتهدم كيانها ، تؤدى إلى اختلاط الأنساب وضياع الحقوق ، فالولد المتبنَّى يعيش فى الأسرة كابنها ، تعامله الأم على أنه ابنها ، وهو غريب عنها ، كذلك البنت تعامله على أنه أخوها ، وهو ليس كذلك ، وفى هذا من الفساد مَا لا يخفى على أحد.

وأيضاً ، فكيف يكون الأب الذى جعله الله سبباً مباشراً لوجودك وتأتى أنت لتردَّ هذه السببية ، وتنقلها إلى غير صاحبها ، وأنت حين تنكر البنوة السَّببية فى أبيك فمن السهل عليك - إذن - أنْ تنكر المسبِّب الذى خلق أولاً ، ولِمَ لا وقد تجرأتَ على إنكار الجميل .

وكذلك الذى ينكر البنوة السببية يتجرأ على أنْ ينسب الأشياء إلى غير أهلها ، فينسب العبادة لغير مستحقها ، وينسب الخَلْق لغير الخالق .

وإلا ، فلماذا يحثُّنا الحق دائماً على برِّ الوالدين ؟ ولماذا قرن بين عبادته سبحانه وبين الإحسان إلى الوالدين فى أكثر من موضع من

---

(١) الوطر هو الحاجة والأرب . أى : لما فرغ منها وفارقها زوجناكها . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٣/٤٩١] . ويقول فى القاموس القويم ٢/٣٤٣ : « الوطر : الحاجة التى يعتنى بها الإنسان ويهتم لها وإذا بلغها قيل : إنه قضى وطره ، أى : حقق رغبته وقضى حاجته وانتهى من أمرها . ويقال : فلان قضى وطره من زوجه أى : طلقها » .

كتابه العزيز ، فقال سبحانه : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (٣٦)﴾ [النساء] وقال :﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (٢٣)﴾ [الإسراء]

قالوا : لأن الأب هو سبب الوجود المباشر ، فإذا لم تبره ، وأنكرتَ أبوته وتمردْتَ عليها ، فلعلَّك تتمرد أيضاً على سبب الوجود الأصلى ، فالوالدان لهما حق البر والإحسان ، حتى لو كانا كافرين .

لذلك ، لما سُئل ﷺ : أيسرق المؤمن ؟ قال : نعم ، أيزنى المؤمن ؟ قال : نعم ، أيكذب المؤمن ؟ قال : لا[1] . فالشرع حين يضع للجريمة حَدّاً وعقوبة ، فهذا إيذان بأنها ستحدث فى المجتمع المسلم ، أما الكذب فلم يضع له الشارع حداً ، مع أنه أشد من السرقة ، وأعظم من الزنى ، لماذا ؟

قالوا : لأن المؤمن لا يُتصوَّر منه الكذب ، ولا يجترئ هو عليه ؛ لأنه إنْ عُرف عنه الكذب وقال أمامك : أشهد أنْ لا إله إلا الله يمكنك أنْ تقول له : أنت كاذب .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ذَٰلِكُمْ.. (٤)﴾ [الأحزاب] أى : ما تقدَّم من جَعْل الزوجة أماً ، أو جَعْل الدَّعى ابناً . فالزوجة لا تكون أبداً أماً ؛ لأن الأم هى التى ولدتْ ، كذلك لا يكون للولد إلا أب واحد ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ .. (٤)﴾ [الأحزاب] وهل يكون القول إلا بالأفواه ؟ فماذا أضافتْ الأفواه هنا ؟ قالوا : نعم ، القول بالفم ، لكن أصله فى الفؤاد ، وما اللسان إلا دليل على ما فى الفؤاد ، كما قال الشاعر :

---

(١) أخرجه الإمام مالك بن أنس فى موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً .

إنَّ الكَلامَ لَفِى الفُؤادِ وَإنَّما جُعِلَ اللسَانُ علَى الفُؤَادِ دَليلاً

إذن : لابدَّ أنْ يكون الكلام نسبة فى القلب ، منها تأتى النسبة الكلامية ، فهل ما تقولونه له واقع ؟ هل الزوجة تكون أماً ؟ وهل الولد الدعىُّ يكون ابناً ؟ فهذا كلام من مجرد الأفواه ، لا رصيد له فى القلب ولا فى الواقع ، فهو - إذن - باطل ، أما الحق فما يقوله الحق سبحانه ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ (٤)﴾ [الأحزاب] والحق هو أن يكون المعتقد فى القلب مطابقاً للكائن الواقع .

فالإنسان قد يتكلم بكلام استقر فى قلبه حتى صار عقيدة عنده ، وهو كلام غير صحيح ، فحين يخبر بهذا الكلام لا يُسمَّى كاذباً لأنه أخبر على وَفْق اعتقاده ، مع أن الخبر كاذب ، فهناك فَرْق بين كذب الخبر ، وكذب المخبر .

فالحق سبحانه يعاملنا فى الأمر المعتقد فى القلب : إنْ كان له واقع ، فهو صدْق فى الخبر ، وصدْق فى المخبر ، وإنْ كان المعتقد لا واقعَ له فهو كذب فى الخبر ، وصدق فى المخبر .

إذن : الأمر المعتقد يكون حقاً ، إنْ كان له واقع ، ويكون كاذباً إنْ لم يكُنْ له واقع ، فإذا لم يكُنْ هناك اعتقاد فى القلب أصلاً فهو مجرد كلام بالفم ، وهذا أقل مرتبةً من القول الذى تعتقده وهو غير واقع .

فمعنى ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ (٤)﴾ [الأحزاب] أى : الواقع الذى يجب أنْ يعتقد ، والإعجاز هنا ليس فى أن الله تعالى يقول الحق الواقع بالفعل ، إنما ويخبر بالشىء فيقع فى المستقبل على وَفْق ما أخبر سبحانه .